المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الثالث عشر بعد المئة

١ اغسطس سنة ١٩٤٨ — ٢٥ رمضان سنة ١٣٦٧

من فلسفة طاغور

الناسك : أنا حرّ . أنا الواحد العظيم المنفرد بذاتي .

« عند ما كنت لله عبداً ، أيتها الطبيعة ، أثرت بعض قلبي إزاءه بعض ، وبعتنيا في حرب دموية اتجاراً في سبيل الدنيا . وسلطت عليّ الشهوات التي ليس لها من غاية إلاّ أن يأكل بعضها بعضاً ، وأن تلتف كل ما يسعه فمها ، فأمسّتني ألماً وقرفاً .

« أما وقد تحرّرت من المخاوف والشهوات ، وبعد أن انكشف عن بصري الضباب ، وبعد أن أشعّت قوى عقلي بريئة وضّاءة ، فلأخرجنّ الى عالم الكذب والبهتان مرّة أخرى ، ولأجلسنّ على ذات قلبه ، غير ملموس ، ولا متزحزح من مكاني

* * *

« فزاني : ألا يوجد في هذه الدنيا النسيحة من حقّ ؟

« الناسك : حقّ ؟ ألا تعرفين أن هذه الدنيا هرّة لا قرار لها ؟ فجموح هذه الخلائق إنما تخرج من تقلّب الدم باحثة عن حقّ يحميها ، ومن ثمّ تدخل ثانية في فوّهة الطواه اللامتناهي ، وهناك تفقد آثارها . ها هي ذي أشباح الكذب والرياء تتخايل من حولك رواحاً وجيئة في سوق الأوهام والخيالات ولا تعطيها من غذاء ، اللهمّ إلاّ عدماً باطلاً . انها إنما تحرّك فينا نهمة الجوع ثم لا تكفينا . ابتعدي من ثمّ يا بنيّتي ! ابتعدي

* * *

الناسك : لقد بدأ الليل يحلك ظلامه ، وتشتد وحشته . إنه يخيّم على كاهل الوجود كأنه امرأة مهجورة . أما هذه النجوم ، فتموعها استحالت ناراً !

« أمي يابنيتي . . لقد ملأت أحزان قلبك الصغير كل ليالي حياتي بالألم والضنى ، والى الابد . إن يدك الجميلة قد تركت لمستها الرقيقة في نسيم هذا الليل . إني أشعر بها على جبيني يا حبة القلب . إن تهدداتك قد تبعثني لما أن فررت بعيداً ، وتعلقت بقلبي . ولسوف أحملها حتى مماتي .

* * *

الملكة جيرانانى : تكلمي الآلهة

« هل أغضبتك يا أمي العزيزة ؟ أنتزع تنحين المستجديات أولاداً يبعثهم ليبعثن بها يبذل لهن من ثمن ، والباغيات يتسلقن ليسلمن من العار . وهأنذا ملكة عظيمة ، وعند قدمي تسجد الدنيا كلها . هأنذا أمضي باحثة بلا أمل في أن أحظى بطفل أضمه الى صدري لعلي أنعم بعاطفة تجعل حياتي أغلى قيمة وأكبر خطراً . أي جرم اقترفت ، وأية كبيرة ارتكبت يا أماه لاستحق كل هذا ؟ ومن أجلها تطردينني من ملكوت الآلهات ؟

* * *

بين راغوباتي الكاهن وجاسنج خادم المعبد :

« جاسنج : ما الذي حدث ؟ أيتها الآلهة الرحيمة أهذا أمرك ؟ أرغبتك في أن يقتل الأخ أخاه ؟ سيدي ! كيف تقول إن هذه هي إرادة الأم ؟

« راغوباتي : لم تكن لدي من وسيلة أخرى لأخدم إلاهتي

« جاسنج : وسيلة ! ولماذا الوسائل ؟ أيتها الأم : أليس لديك سيفك القاطع لتنفذي أمتر بيدك القوية ؟ أهو لزام أن تذهب ارادتك حافرة تحت الثرى انفاقاً ، كما يفعل اللص القاتل ، للسلب سراً في الظلام ؟ يا للخطيئة !

« راغوباتي : ماذا تعرف عن الخطيئة ؟

« جاسنج : ما عرفته منك !

« راغوباتي : إذن قف معي ! قف وتلق درسك ثانية مني . ليس للخطيئة من معنى في الواقع . إنك تقتل لتقتل . ليس في ذلك من خطيئة أو أي شيء آخر . ألا تدري أن ثرى هذه الأرض إنما يتألف من عدد غير محدود من حوادث القتل والتفظيع ؟ إن الزمن

القديم ما ينفك يخط حوادث الحياة المنحدرة في جوف العدم مع خلوقتها بمداد من دم ! يضع القتل أينما تصوّر . في القفر المجدب وفي مغائر الانسان . وفي عشوش الطير ، وفي حفر الحشرات ، وفي البحر وفي السماء . وهنالك قتل من أجل الحياة ، وقتل من أجل التسلية وقتل للاشيء أصلاً . ان الدنيا تقتل من غير أن تهدأ نوبتها . وكذلك الإلهة «كالي» روح الزمان الفائض بالفتنة ، واقفة ولسانها العاطش مندلع من فمها ، وكأسها بيدها ، حيث إنيه يتسرّب دم الحياة الفاني ، كما يتسرّب الرحيق الى الدّنان من عناقيد العنب الشهية .

« جاسنج : قف يأستاذي . إذن فالحب تضليل والرحمة سخرية ! وكل ما في هذه الحياة من حق بالثأر منذ أبعد الأزمان ، منحصر في تهمة القتل والتعطش الى الهدم والتحطيم ؟ واذا صحّ هذا أليس من المعقول ان تكون الحياة قد حطم بعضها بعضاً وفنت منذ أزمان قصية ؟

« يأستاذي : إنك تعرف الحق كما تعرف الباطل . إن شرائع القلب ليست بذاتها شرائع الكتب المقدسة . العيون لا تستطيع أن ترى بنورها هي . بل يجب أن يأتيها النور من الخارج . أعف عني يأستاذي . أعف عن جهلي .

« من ذا الذي يقول إن طرق الدنيا ملتوية متعسّرة ؟ على أية حال سوف تصل بنا الى النهاية . النهاية التي ينتفي معها سلطة الشرائع والأحكام ، وتنسى معها خطيئات الحياة وآلامها ، حيث تلك الراحة الأبدية .

« ماذا تجدي عنا الكتب المقدسة ، والمعلمون وتعاليمهم ؟

« لا يأستاذي : لا تحدّثني عن الحب . فلا فكر داثماً في الواجب . إنما الحب كالطحلب الأخضر وكالأشجار وكوسبتي الحياة ، كلها أشياء ينعم بها سطح الأرض . إنها تأتي وتنمو كالأحلام ..... ولكن من وراء هذه الأشياء يكون الواجب ، كطبقات الصخور العاتية ، أو كحمل ثقيل لا تزحزحه النّوى .

ooo

« ماليني : لقد حانت سادتي ، وأصبحت حياتي كقطرة الندى المترقرقة على زهرة النرجس ، تهتز خائفة في طيات الزمان . إني أشعر دنيّ ، فخيل إليّ أني أسمع صوت المياه ، وفي قلبي حرقة لا أعرف سببها .

« لقد سقى القمر في هذه الآونة من بين السحب وروح السلام يرف على صفحة السماء ، كأنه يحتضن الدنيا برمتها بين ذراعيه ، تحت ضوء القمر العظيم ... من هنا تنحدر الطريق وتمتد الى حيث تفقد آثارها بين الأشجار الشيقة بظلالها الصامتة . وهنا تقوم البيوت . وهنالك يقوم المعبد . وشاطىء النهر يلوح من بعد صامتاً موحشاً . فالظاهر أني هبطت ، كباطل ينتفض فجأة من سحب كلها أحلام ، الى عالم الانسانية ، فكنت على جانب الطريق .

* * *

« كيمنكر : انها لاسوأ اللحظات تلك التي يخدع الانسان فيها قلبه . فان الشهوة العمياء تصبح كتاب صلواته ، وتتربع الأوهام على عرش آلهته . أمن وراء هذا القمر ، الذي يستلقي نائماً بين السحب الصاوية الصباباً ، يكون عالم الحقيقة الخالدة ؟ الصبح السافر سوف يفشانا في الغداة . وستبدأ الجماهير الجائعة تجوب أنحاء بحر الوجود بآلاف من الشباك ، وقلما يتذكرون هذا الليل الهادي بأضوائه القمرية ، الا كما يتذكرون غشاءة رقيقاً من الباطل تنسجه سنات النوم ، أو الاشباح ، أو الأوهام . إذ تلك الشبكة السحرية التي تنسج عادة من مفاتن خادعة تجديها امرأة ، فكذا مثلها ، وهل يمكن أن تشغل محل الحقيقة العظمى ؟ هل لعقيدة يخلقها وهمك أن تلقى عطف الماجرة ، إذ تتلقى ثمراتها ، وتشتد حرارتها ؟

* * *

« إذن يجب عليك أن تنتزع نفسك من أحلامها والقي أمامك . فان البيت القديم الذي أوتيه العمود ، تلتهمه النيران . وأرواح أسلافنا تطير متناوحة فوق الخرائب ، كطيور تصرخ باكية على عشوشها المحطمة . أهذا وقت التردد ؟ حيث الليل منشد الملك ، والأعداء يطرقون الباب ، والرعايا نائمون ، والثائر مستتر بأوهامهم ، وكل منهم يضع يده على خنجره أخيه ؟

* * *

وفي أيام المحن تنحل أقدس الروابط ، فالأخ يحطم أخاه ، والصديق يخون الصديق . سأخرج في الظلام ومن ظلام الليل سوف أدرد ، لأقرع الباب . فهل سأجد صديقي واقفاً بانتظاري ، وبيده مصباح مضيء ؟ سأعمل هذا الأمل بين جوانحي .